القائد D: تسالة (أستاسيليس) وبقاياها الأثرية*

ترجمة وتعليق: د.محمد ناصري

Tessala (Astacilis) and archaeological remains

د. محمد ناصري
جامعة الجيلالي ليابس-سيدي بلعباس-
mohammedunivsba@gmail.com

تاريخ الإرسال: **2023/06/20** تاريخ القبول: **2023/07/16** تاريخ النشر: **2023/07/30**

Abstract:

With a visionary perspective, we can restore the significance of the Tessala region and its historical role throught the ages. The region has bees attractive to various political powers that have passed through North Africa. While historical sources have not given it due attention for various reason, mainly because it is not situated on a commercial route that attracts the attention of travelers and geographers, it possesses a fortified position that makes it a challenging target refuge in Tessala granted the defeated a sanctuary and immunity against sieges. For this reason, the Romans established a fortress there to monitor the area.

During the French invasion of Algeria, when its officiers and orientalists delved into the history of Algeria, they discovred that the Romans had an interest in this region. They renewned the same inclinations, but within an expanded framework seeking to exploit its strategic potential. The military commander's visit to Tassili was part of this context. He contucted archaeoligical and geographical surveys, and we find that the focus ultimately stelled population.

Keywords: Tessala ; Beni Amer ; Romans; Sidi-Bel-Abbès; settlement.

الملخص:

بنظرة بروديلية يمكننا إعادة الاعتبار لمنطقة تسالة ودورها التاريخي عبر العصور، لقد كانت المنطقة جاذبة لمختلف القوى السياسية التي مرت على شمال إفريقيا، صحيح أن المصادر التاريخية لم تفها حقها من الاهتمام لدواعي عديدة، أهمها عدم تموقعها في خط تجاري يجذب أقلام الرحالة والجغرافيين، إلا أنها تتمتع بموقع حصين يجعلها رقما صعبا في الحروب التي جرت بالمنطقة عبر العصور، فالمنهزم إذا لاذ بها منحته منعة وحصانة ضد المحاصر، ولهذا السبب أقام الرومان بها حصنا لمراقبة المنطقة؛ ومع الغزو الفرنسي للجزائر ونبش ضباطه ومستشرقيه في تاريخ الجزائر وآثارها وجدوا أن الرومان كان لهم اهتمام بهذه المنطقة، فجددوا نفس الميول لكن في إطار موسع يسعى لتجديد استغلال إمكانياتها الاستراتيجية، وتأتي زيارة هذا القائد العسكري لها في هذا الإطار، أين قام بمسح أثري ودراسة جغرافية وطبيعية لها؛ ونجد أن مدار الاهتمام استقر في آخر المطاف حول ضرورة استغلال الأراضي الخصبة لتسالة ومنحها للمعمرين.

الكلمات المفتاحية: تسالة؛ بني عامر؛ الرومان؛ سيدي بلعباس؛ الاستيطان.

مقدمة:

أثناء إتمام الدراسات الطوبوغرافية في مقاطعة سيدي بلعباس، انتقينا نموذجا لدراسته، ويتمثل في قمة ضمن السلسلة الجبلية الكبرى التي تفصل المقاطعة عن الساحل الوهراني، ونخص بالذكر تسالة[1]، والتي حظيت عبر العصور باهتمام خاص بفضل مظهرها وتضاريسها.

من أي زاوية تنظر إليها، تعتبر تسالة من بين أكثر التضاريس تميزا في المنطقة، فهي نقطة توجيه لافتة للانتباه نظرا للدور الذي لعبته في التنظيم العام للمنطقة عبر العصور[2]؛ بمظهرها البيضاوي المنتظم على ارتفاع ب1000م عن سطح البحر، ارتفاع لا يتجرأ المرء على إلقاء نظره من أعلاه.

للوصول إلى القمة الجبلية وجب تسلق سلسلة من الهضاب التي يصل ارتفاعها إلى 600م والتي تربطها ببعضها البعض وديان صغيرة تخفي بين طياتها مجموعة من الينابيع الصغيرة الصافية والباردة، فضلا عن مجموعة من أشجار التين المنتشرة حولها. تتمتع هذه الهضاب بخصوبة مهمة، فهي مستغلة حاليا من طرف الحجز[3] وهم بطن من بني عامر؛ ستكون هذه المنطقة مصدر ثروة لاستعمارنا الفرنسي الذي لم يستقر بعد في سهل سيدي بلعباس[4].

بالنسبة لحدود الجزء العلوي من الجبل فهي واضحة، أما المنحدر الجنوبي فيشرف على خط طويل يضم حوالي ثلاثين ينبوعا، تتجمع في قاعدة منحدرات شديدة؛ وهو ما يعطينا انطباعا بأن الجبل يلعب دورا مهما أكثر من السهل المحيط به، فالأول يمثل خزانا مائيا للثاني[5].

من خلال ما سبق نجد أن الجبل يغير مظهره باستمرار، وانطلاقا من هذه القاعدة نجد أن العديد من المنحدرات المعقدة تشكلت من خلاله، والتي تنظفها المياة بشكل مستمر، كما أن غطاءه النباتي يتناغم مع طبيعة الأرض.

قمم تسالة وتلالها والممرات التي تفصل بينها كلها مغطاة بنباتات برية والتي لا يتجاوز طولها 30 سم، وتنمو بكثرة في أسفل الجبل وتقل كلما صعدنا لأعلى؛ ونرى أن الانتشار المحتشم لهذه النباتات لا يعود إلى ارتفاع الجبل بقدر ما يعود لفقر التربة؛ لأن جلّ الهضاب العليا التابعة لنا في افريقيا مغطاة بها بنسبة كبيرة.

إذا تسلق المرء إحدى قمم تسالة الثلاث، فسينبهر لا محالة بجمالية المنظر التي تغري الأعين؛ ففي الشمال يتراءى لنا سهل ملاتة الذهبي بكامل حلته والذي زاده ملح السبخة بهاء في منظره؛ وخلفه أين يطل علينا جبل متوسط الارتفاع والمسمى غمرة[6] والذي يفصل سهل ملاتة

عن البحر، كما يفصل من الشرق جبل سانتا كروز الواقع بين وهران والمرسى الكبير، ومن اليمين يبرز جبل القهار أو كما يسمى بجبل الأسود، أين تبحث العين في سفحه عن مستعمراتنا الباريسية الصغيرة؛ ثم نجد تلال مستغانم، ويمكن للعين أن ترى السفح الأسود لجبل طفراوي الذي يتوسط قمتين، فضلا عن التضاريس المتعرجة التي تفصله عن تسالة. في الشمال الشرقي نتّبع وادي مكرة الذي يختفي تدريجيا كلما اقتربنا من جبال معسكر، بتعرجاته الكثيرة المنقوشة على السهل الكبير أين تشهد مدينتنا سيدي بلعباس ازدهارا والتي تظهر لنا من هنا بيوتها البيضاء.

في الجنوب يمكننا تتبع الخط الهائل لجبال الكاف، والتي تعتبر حاجزا شماليا للصحراء الوهرانية، أين يمكن لساكنة الصحراء رؤية مساحات شاسعة تصل إلى التل، وفي الغرب لدى مغادرة هذه المنطقة الجبلية ننزل في سهل واسع بحوافه الذهبية التي تهيمن عليها تلمسان، هذه الأخيرة تمنعنا بعد المسافة من رؤيتها.

إذا تتبعنا التضاريس فسنتجاوز المرتفع الذي يقسم نهر التافنة، سنرى فوق مصبّه جبال وعرة مرتسمة بالأزرق وهي تابعة لقبائل ترارة[7]، ثم يظهر لنا مجددا البحر من وراءها، لنعود من نقطة الانطلاق لهذا التأمل الرائع.

تبين لنا بقايا التواجد البربري والروماني في هذه المنطقة أنهم أدركوا جيدا أهمية الاستيطان في هذا الخزان المائي الكبير لسهل سيدي بلعباس. وقد ذكر الجغرافي الإدريسي أنه توجد مدينة خلال القرن الثاني عشر للميلاد، من جهة أخرى أثبتت تنقيبات الرائد أزيما[8] عن وجود مدينة أستاسيليس[9] في أعالي قمة تسالة، وهو اسم يحيلنا إلى التواجد القديم لهذه المنطقة.

احتفظ لنا بطليموس باسم طوبونيم "أستاسيليس" أين حدد موقعه ب30 دقيقة شرق مدينة تيمسي[10] التي عثر بها على الآثار الرومانية بمنطقة عين تموشنت، تقودنا هذه المعلومة إلى استنتاج أن جبل تسالة أو أستاسيليس لم تكن بتلك الأهمية لدى الرومان، بدليل أننا لم نعثر على آثار لمدينة رومانية، بل نجد أنها لم تكن مسجلة حتى في قائمة الأبرشيات، وهو ما يعني أن التوطين السكاني بها كان ضعيفا.

بدراسة دقيقة لآثار هذه المنطقة يتبين لنا أن الرومان استغلوها لأغراض عسكرية فقط، فجميع الأثار التي عثر عليها (عين زرتيتة وعين بنت السلطان إضافة إلى اثنتان من التلال المغطاة بالآثار القديمة) تعتبر نقاط استراتيجية يرى فيها العسكري أهمية للسيطرة على الجبل ومنها يمكن للناظر التمتع بالمناظر الجميلة التي وصفناها آنفا؛ أما في سفح الجبل لا توجد أي بصمات أثرية للوجود الروماني، أين تظهر بوضوح خصوبة المنطقة، وعليه فالتنقيب عن الآثار الرومانية لا يكون إلى بالتوجه نحو سفوح الجبال وفي الكتل الصخرية التي ينبت فيها البلوط الأخضر بصعوبة.

من وجهة نظر عسكرية بحتة، فإن قمم تسالة لم تكن ذات أهمية كبيرة في هذا الجانب، فقد استغلت فقط كمراصد لحركية الساكنة أو كمركز للحراسة، وعلى الأرجح أن منطقتي عين زرتيتة وعين بنت السلطان كانتا لهما مؤهلات طبيعية تسمح لهما بمراقبة سهل تسالة؛ أما فيما يتعلق بالنشاط العسكري للحصن الروماني، فعلى الأغلب أن الحامية لم يكن في وسعها سوى شن بعض الهجمات الليلية الجريئة والتي تكتسي طابع المفاجأة والسرعة لمباغتة الساكنة التي تغط في نوم عميق؛ ولاشك أن هذه الغارات كانت لأهداف مادية بغية الحصول على بعض الغنائم ثم العودة للحصن.

فوق هذه النقاط التلسكوبية نستطيع مشاهدة العديد من المناطق والأشياء، وبالقرب من منبع عين بنت السلطان درسنا بالتفصيل أحد المواقع التي تطرقنا لها آنفا؛ وتعتبر كمحمية طبيعية من بين أفضل المناطق التي شاهدناها في مقاطعة وهران. إضافة لذلك تتبعنا الحدود الخارجية لأسوار القلعة، وبقايا آثار المساكن بداخلها؛ سيكون أمرا جيدا إذا تمكنّا من تقدير ارتفاع أسوار القلعة، لكن ذلك يبدو صعبا نظرا للعدد الكبير من الحجارة المتناثرة في كل مكان جراء انهياره أو تهدمه عبر الزمن، وبالرغم من ذلك أعددنا خريطة شاملة تماما كالتي أعدت حول المدينة الجديدة سيدي بلعباس[11] (أنظر الخريطة المرفقة).

يقع هذا الحصن في أعالي شرق جبل تسالة، على هضبة صغيرة تتربع على إحدى التلال الصخرية، شكله مستطيل أفقي، لكنه كثير الانحناءات نظرا لتضاريس التلة الصخرية التي شيد عليها، فكل الخنادق التي حفرت لبنائه تمت عليها؛ محور الحصن موجه حسب الجبل ويبلغ طوله حوالي 45 متر، أما مدخله موجه نحو الشمال الشرقي؛ من ناحية العرض نجد بعض التفاوت لكنه على متوسط 45 متر؛ تبين لنا المساحة الداخلية لهذا الحصن أن طاقته الاستيعابية تقدر بين 180-200 جندي، فمن خلال الغرف التي وقفنا عليها داخله نرى أنها تستطيع إيواء هذا العدد.

الحصن محاط بسورين يتراوح سمكهما بين متر وقد يصل إلى ثلاث أمتار في بعض الأحيان، وهي أسوار تؤدي وظيفة دعم للتربة القاعدية، وهو الأمر الذي يجعل هذه العمارة العسكرية متينة، فضلا عن طبيعة التضاريس التي دعمتها في ذلك، هذه الصلابة دائما ما تثير الإعجاب فأعمال هذا الشعب العظيم[12] عوّدتنا دائما على عمارة جد قوية؛ ونجد هذه الميزة أيضا في الخزان المائي الذي يتوسط ساحة السلاح، ولايزال جزء من القبة قائما، والحالة نفسها مع

الحوض الذي لا يزال بحالة جيدة. شروط التحصين محترمة بشكل عام لتفادي الاحتكاك (باستثناء جزء من الحفرة على يمين المدخل) ونرى ذلك من خلال المنحدرين اللذان يخترقان المكان.

كان بإمكان الخزان الاستفادة من مياه الأمطار، وفي الأوقات الآمنة يمكن التزود من عين بنت السلطان الذي لا تفصله عنه سوى 100 متر، وفي أسفل المنحدر المشكل للقلعة، وعلى الرغم من عدم وجود أي آثار بناء حول المنبع، فإنه من المرجح أن يكون حوضا لتجميع المياه. بدليل أن العدد الكبير من الحجارة المتناثرة حوله تثبت إلى حد كبير وجود بناء قربه؛ كما نجد على إحدى التلال المقابلة للقلعة بعض الأطلال لكن من الصعب تحديد معطيات تفصيلية عنها بشكل خاص.

بعد رحيل الرومان عن شمال افريقيا، عمّر البربر القلعة وشيدوا أسوار مشابهة لأسوار المنصورة بأحواز تلمسان أو قلعة ندرومة، والتي على الأرجح أدت وظيفة دعم للتربة التي انهار جزء كبير منها جراء الإهمال الذي طالها بفعل الزمن.

في الوقت الذي تعين فيه إقامة البرق الجوي بين وهران وتلمسان، لاحت لنا فكرة بوضع محطة له في موقع الحصن الروماني أو القمم المجاورة له، لكن الضباب الكثيف الذي يغطي تسالة في أكثر أوقات السنة اضطرّنا للتخلي عن هذه الفكرة.

مع هذه الاعتبارات الآنفة تظهر لنا جليا صعوبة الاستفادة من هذا الموقع، وعليه يظهر لنا بما لا يدع مجالا للشك بضرورة إبعاد أي مخطط لإنشاء موقع عسكري به، والأمر الذي يهمنا أكثر هو احتلال هذه الحدائق الجميلة والأراضي الخصبة التي تضمها منطقة تسالة، فبعد رحيل

قبائل بني عامر في سبتمبر 1845م أصبحنا نحن المالكين لها، وستكون مصدر ثروة للاستيطان الذي سيحط رحاله بجانب جبل أستاسيليس القديم[13].

الهوامش:

*العنوان الأصلي للمقال:

Capitaine D, Le Tessala (Astacilis) et ses Ruines, la Revue Africaine, n08, Décembre, 1857, pp81-85.

بينما نجد في الكشاف التفصيلي للمجلة الإفريقية الصادر عن المجلس الأعلى للغة العربية العنوان التالي:

باربريكر، التسالة (أستاسيليس/ Astacilis) وأنقاضها (مع لوحات مرفقة)، المجلة الإفريقية، الجمعية التاريخية الجزائرية، الجزائر، 1858، م2، ص81.

وهو عنوان مجانب للصواب، فضلا عن البيانات الخاطئة للمقال، لأنه منشور سنة 1857 وليس 1858، وعنوان المقال لا يتضمن ذكر للوحات مرفقة، إضافة إلى أن كاتب المقال مجهول وهو ضابط رمز لاسمه بحرب D وليس بيربروجر. المجلس الأعلى للغة العربية، الكشاف التفصيلي لمقالات المجلة الإفريقية (1856-1962)، منشورات المجلس، الجزائر، 2022، ص113.

1-منطقة زراعية خصبة تبعد عن وسط المدينة بحوالي 16كم، وعن تلمسان بحوالي 100كم، كانت مدينة قديمة بناها الأمازيغ على سهل ممتد نحو 20 ميلا أي حوالي 32كم، تتميز سهولها بخصوبة تربتها فقد وصف الوزان قمحها أنه جيد جميل اللون غليظ الحب، ومحصوله يكفي لإطعام تلمسان كلها، تعرضت المدينة للتخريب في إطار الصراع الزياني المريني، يعيش ساكنتها في الخيام. الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج2، ترجمة محمد حجي، محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، 1983، ص25.(المترجم)

2-شهدت تسالة العديد من الأحداث التاريخية خلال العصر الوسيط ذكرها لنا عبد الرحمن ابن خلدون في العبر ويحي ابن خلدون في بغية الرواد وصاحب زهر البستان في دولة بني زيان، ويمكن إيجازها كالتالي:

454ه / 1062م مقتل الحاكم الحمادي بلكين بن محمد على يد الناصر بن علناس ثأرا لأخته زوجة بلكين.

706ه/1206م: القبض على سعادة قاتل أبو يعقوب يوسف المريني.

732ه/1332م توجه أبو الحسن المريني إلى تسالة وإقامته بها عدة أشهر.

761ه/1360م دخول أبي سالم المريني إلى تلمسان وتنصيبه لمحمد بن أبي سعيد عثمان بن أبي تاشفين الأول حاكما، وفراره عقب وصول خبر تحرك أبو حمو الثاني إلى تلمسان لاستعادتها، فمر محمد على تسالة متوجها إلى بني راشد.

1360/ه761م خروج أبو حمو الثاني بجيشه لمطاردة محمد بن أبي سعيد بن أبو تاشفين وأقام أواخر رمضان وأيام عيد الفطر بتسالة.

1364/ه765م تعرض أبو حمو لخيانة في جيشه خلال معركة مع محمد حفيد أبي تاشفين بوادي مينة، فانسحب من المعركة وتحصن بتسالة أياما ثم واصل السير إلى تلمسان.

1367/ه768م عسكرة جيش أبو حمو الثاني بتسالة وعقد اجتماع عسكري بها لمواجهة معارضه أبو زيان.

1370/ه771م توجه أبو حمو الثاني في حملة عسكرية إلى شرق المغرب الأوسط وإقامته بتسالة لمراقبة المنطقة أنظر: عبد الرحمن ابن خلدون، العبر، ج6، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، 2000، ص63، 64، 498، عبد الرحمن ابن خلدون، العبر، ج7، ص145، 146، 203، 335. يحي ابن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج1، تحقيق عبد الحميد حاجيات، عالم المعرفة، الجزائر، 2011، ص251. يحي ابن خلدون، نفسه، ج2، ص141، 188، 225. التنسي، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، تحقيق محمود بوعياد، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1985، صص145-146 (المترجم).

3-نسبة لجدهم حجاز بن عبيد بن حميد بن عامر بن زغبة، فهم بذلك ينتمون للبطن الثالث من بني عامر وهو بطن بنو حميد الذي يضم حسب المشرفي ستة وستون بطنا. المشرفي، بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإسبانيين بوهران من الأعراب كبني عامر، المجلة الإفريقية، العدد 318، 1924، ص202 (المترجم).

4-كتب المقال في أوت 1849م وفي هذه الفترة لم يكن الاستعمار الفرنسي قد قام بمشاريع كبيرة في حوض المكرة.

5-اشتهرت تسالة في المصادر التاريخية بكثرة المياه ويتجلى ذلك في قول أحمد الغماري لأحد أحفاد سيدي محمد بن عمر الهواري " لو أراد جدك أن يأتي بالماء من تاسالا لوهران لفعل". محمد بن صعد، روضة النسرين في التعريف بالأشياخ الأربعة المتأخرين، مراجعة وتحقيق يحي بوعزيز، عالم المعرفة، الجزائر، 2009، ص111 (المترجم)

6-قبيلة بربرية نسبة لجدهم غمرة البربري، جاوروا في مساكنهم قبيلة حميان واختلطوا بهم واشتركوا في التعامل مع الإسبان والولاء لهم. المشرفي، نفسه، صص211-212 (المترجم).

7-منطقة تقع في الشمال الغربي لمدينة تلمسان، أهم ما يميزها الكتلة الجبلية الواقعة ضمن الأطلس التلي، وأهمها جبل فلاوسن وجبال تاجرة، اسم ترارة حسب الدكتورة قدور منصورية هو اسم ظهر في الفترة الحديثة، بالضبط سنة 1548م بين القبائل البربرية والعربية المستقرة بالقطاع الوهراني وذلك تحت قيادة الولي الصالح سيدي عبد الرحمن اليعقوبي، بهدف مواجهة الإسبان؛ أما معنى الاسم فمشتق من الصفات الجسدية لساكنة هذه المنطقة، أي

ترارس بمعنى الشجعان. قدور منصورية، منطقة ترارة: دراسة تاريخية وحضارية من القرن 5-10هـ/ 11-16م، أطروحة دكتوراه، جامعة تلمسان، 2018، صص3-9 (المترجم).

8-حصل كتابه حول الآثار الرومانية بشمال افريقيا على جائزة الأكاديمية الفرنسية للآثار والآداب (المؤلف).

9-حسب الدكتور كريم ولد النبية، فإن اسم تسالة ليس لاتينيا ولا عربيا، بل هو اسم بربري، ويعني "نبات الديس" لأنه منتشر بكثرة في المنطقة. Karim Ouledennbia, Le toponyme Tessala, symbole d'une appropriation du territoire, revue Insaniyat, n97, 2022, p27.

10-تقع بعين تيموشنت، اكتشفها ضباط الاحتلال الفرنسي سنة 1847م أين وجدوا بها آثار وكتابات رومانية. Timci Colonia, La revue africaine, n03, 1858, p420-421.

11-لم يدرج الكاتب أي خريطة في نهاية المقال (المترجم).

12-يقصد الرومان، وهو توجه يبين مرامي الكتابات الاستعمارية التي سعت لشرعنة وجودها بتمجيد الاحتلال الروماني وتنصيب أنفسهم كوريثين لهم (المترجم).

13-نستغرب عدم ذكر مؤلف هذا المقال المهم لطريقة بناء الحصن الروماني بالمنطقة ومواد بنائها إذا كانت من حجارة صغيرة أو مواد أخرى، فضلا عن المواد المستعملة في ربط هذه الحجارة مع بعضها، فكل هذه المعطيات تكتسي أهمية في تحديد تاريخ الحصن، ويزداد استغرابنا لأن العديد من الأشخاص الذين زاروا الحصن كان لهم اعتقاد مشترك حول الأصل الإسباني لها؛ وهو على الأرجح رأي مجانب للصواب، لكن بالرغم من ذلك وجب تصحيحه بأدلة علمية دامغة(رئيس التحرير).

الملاحق: النص الأصلي للمقال

2e Année. N° 8. Décembre 1857.

Revue africaine

LE TESSALA (Astacilis?) ET SES RUINES.

En accomplissant des travaux topographiques dans la subdivision de Sidi Bel Abbès, nous avons choisi, pour l'étudier plus particulièrement, un sommet de la grande chaîne qui sépare cette subdivision du littoral oranais, le *Tessala*, qui, par sa physionomie et sa configuration, a été de tout temps l'objet d'une attention spéciale.

De quelque côté qu'on l'envisage, le Tessala est toujours un des reliefs le plus nettement caractérisés du pays, un point directeur sur lequel l'œil le plus inattentif se trouve involontairement appelé, tant est saisissant le rôle qu'il joue dans l'ordonnance générale de la contrée. Dessinant une forme ellipsoïdale assez régulière, à une hauteur moyenne de 1,000 mètres au-dessus du niveau de la mer (observations de M. le capitaine Karth), il ne se présente pas immédiatement au regard avec cette altitude absolue. Pour arriver au sommet, il faut gravir une série de gradins et de plateaux qui vont s'élevant jusqu'à près de 600 mètres, plateaux se raccordant entre eux par de petits ravins dont les replis cachent une foule de petites sources d'une eau limpide et fraîche que rafraîchit encore l'ombrage des nombreux figuiers sous lesquels elles serpentent. Ces plateaux sont d'une fertilité remarquable : cultivés maintenant par une fraction des Beni Amer, les Hadjedj, ils pourront devenir une source de richesses pour notre colonisation française qui n'a pas encore d'établissements dans la plaine de Sidi Bel Abbès (1).

Les limites de la partie supérieure de la montagne sont indiquées,

(1) L'auteur écrivait en août 1849. Depuis cette époque, la colonisation a fait de très-grands progrès dans le bassin de la Mekerra. — N. de la R.

pour le versant Sud, par une ligne non interrompue de sources, au nombre d'une trentaine environ, qui se rencontrent à la base des pentes les plus raides; ce qui témoigne que la montagne joue, par rapport à la base, le rôle d'un véritable réservoir.

La montagne change d'aspect, à partir de cette base : formée dès lors de mouvements plus abruptes, plus tourmentés, plus lavés par les eaux, sa végétation est en harmonie avec la nature du terrain. Les sommets du Tessala et leurs croupes arrondies, les cols qui les séparent sont couverts de broussailles de chêne vert dont la hauteur moyenne ne dépasse guère trente centimètres ; celles-ci grandissent à mesure qu'on descend vers la base et s'arrêtent aux deux tiers environ de la masse dominante de la montagne. Le peu de développement de cette végétation spontanée doit s'attribuer à la pauvreté du sol de cette zone et non à l'élévation de la montagne ; car tous les hauts plateaux sont couverts de chênes verts qui atteignent dans cette partie de nos possessions africaines des proportions très-remarquables.

Si l'on gravit un des trois sommets principaux, on est émerveillé de l'immensité du panorama qui se déroule devant les yeux. Vers le Nord, c'est la plaine de Mleta tout entière avec son fond jaunâtre que le sel parsème de points d'une blancheur éblouissante ; au-delà, c'est le massif peu élevé de Ramera qui sépare cette plaine de la mer et qui détache à l'Est le massif conique de Santa Cruz, entre Oran et Mers el Kebir ; plus à droite, saillit le *Djebel Kahar* ou montagne des Lions, au pied de laquelle l'œil cherche nos petites colonies parisiennes. Puis, ce sont les collines de Mostaganem ; et enfin, sur un plan beaucoup plus rapproché, aux pieds même de l'observateur, le massif du Tafaraoui qui montre seulement l'extrémité noirâtre de son cône, entre les deux pitons qui l'accompagnent et le terrain tourmenté, coupé, haché qui le sépare du Tessala. Au Nord-Est, on suit la vallée de la Mekerra qui va se perdre vers les montagnes de Mascara, après avoir tracé ses innombrables méandres sur le vaste bassin où s'épanouit la ville neuve de Sidi bel Abbès dont on aperçoit les blanches maisons.

Au Sud, on peut suivre toute la ligne immense des Kef, ce rempart septentrional du Sahara oranais, d'où l'habitant du Désert regarde jusque dans le Tel. A l'occident, et en quittant ces hautes régions, on descend dans une vaste plaine aux flancs jaunâtres que Tlemcen domine, Tlemcen que l'éloignement seul empêche d'apercevoir.

Si, en suivant les reliefs, on franchit le massif coupé de la Tafna, au-dessus de son embouchure, on voit se dessiner en bleu les rudes montagnes des Kabiles de Trara, puis on retrouve la mer et l'on revient au point de départ de cette magnifique contemplation.

Les traces d'occupation romaine et berbère que l'on rencontre à chaque instant sur les flancs du Tessala prouvent que, de tout temps, on a compris l'avantage qu'il y avait à occuper ce réservoir hydraulique de la plaine de Sidi bel Abbès. Le géographe arabe El Edrissi parle d'une ville berbère considérable qui y existait au 12e siècle de notre ère. Les recherches du capitaine Azéma de Montgravier — dont un ouvrage sur les ruines romaines de la province a été couronné par l'académie des Inscriptions et Belles-lettres — donnent à la ville d'*Astacilis* une position dans le massif du *Tessala*, nom qui rappelle assez bien la désignation antique.

Ptolémée, qui nous a conservé ce nom d'Astacilis, place la localité à laquelle il l'applique à 30 minutes Est de Timici que l'on identifie avec raison aux ruines d'Aïn Temouchent. Cette évaluation conduit, en effet, au Djebel Tessala ; et si l'on ne trouve pas en cet endroit les restes d'une ville romaine, il faut se rappeler qu'Astacilis ne figure pas même sur la liste des évêchés et que c'était probablement un endroit de très-mince importance, au moins comme centre de population.

L'étude attentive des ruines de ce canton semble, en effet, établir que les Romains ne l'ont jamais habité que dans un but purement militaire : tous les vestiges d'occupation qu'on y rencontre — 'Aïn Zertita, 'Aïn Bent es Soultan et deux autres pitons couverts également de ruines antiques — sont des points dominants du massif d'où l'œil peut planer à son aise sur le vaste horizon que nous décrivions tout à l'heure. Dans la partie basse de la montagne, au contraire, celle dont nous avons noté l'extrême fertilité, il n'apparaît aucune trace romaine, et il faut aller les chercher aux sommets, dans ces masses rocheuses où le chêne vert peut à peine développer quelques rameaux rabougris.

Et même au point de vue militaire, les cimes du Tessala n'ont pu avoir d'importance que comme postes d'observations ou simples vigies. 'Aïn Zertita, 'Aïn bent es Soultan, ont l'air d'avoir été autant de vedettes chargées de surveiller la plaine ; et, sous le rapport offensif, pouvaient tout au plus lancer quelques hardis guerriers pour surprendre une population endormie dans la confiance de sa supériorité matérielle et offrir ensuite aux auteurs de ces rapides

razias l'abri de solides murailles pour le butin provenant d'un heureux coup de main.

C'est sur l'un de ces points télescopiques, d'où l'on aperçoit tant de pays et tant de choses, près de la fontaine de Bent es Soultan, que nous avons étudié spécialement un des postes dont on vient de parler. Comme conservation, il est ce que nous avons rencontré de mieux dans la division d'Oran. Aussi, nous avons pu suivre parfaitement les contours des murs d'enceinte de la citadelle, retrouver les traces des habitations intérieures; et si ce n'était l'impossibilité d'avoir la hauteur absolue des murailles au-dessus de la place d'armes, vu la grande quantité de pierres que les constructions en s'écroulant ont laissées sur le sol, nous avons pu en faire un plan aussi complet que celui qui représenterait notre nouvelle ville de Sidi bel Abbès. (Voir le plan ci-contre.)

Placé à la partie la plus élevée de l'extrémité orientale du Tessala, sur un petit plateau qui couronne un mamelon, ce fort avait la forme d'un rectangle allongé, mais altéré dans la régularité de ses lignes par la nécessité de suivre les contours de la base rocheuse sur laquelle on l'avait assis et dans laquelle ses fossés sont creusés en presque totalité. Le grand axe, orienté à peu près comme celui de la montagne, a une longueur de 45 mètres; l'entrée est tournée vers le Nord-Est: la largeur, plus inégale que la longueur, est en moyenne de 45 mètres. Les développements de ce fort autorisent à supposer que la force de la garnison devait être de 180 à 200 hommes; la quantité de chambres qu'on observe dans l'intérieur permettait de loger ce nombre de défenseurs.

Une double muraille épaisse en moyenne d'un mètre et quelquefois même de 3 mètres, muraille pour soutenir des remblais de terre, par exemple, voilà, quant à la solidité, des conditions suffisantes pour se mettre à l'abri de toutes les machines de guerre, en supposant que la nature du terrain ait permis d'en amener. Cette solidité que l'on admire toujours dans les ouvrages de ce grand peuple, on la retrouve dans la citerne qui est au milieu de la place d'armes : une partie de la voûte est encore debout; quant au bassin lui-même, il subsiste dans un état de parfaite conservation.

Les conditions de flanquement — sauf, peut-être, pour la partie du fossé qui se trouve à droite de l'entrée — sont partout bien observées ; il en est de même pour le défilement. On peut en avoir une preuve immédiate en observant la forme des deux rampes qui font pénétrer dans la place.